

تفسير ابن كثير

أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم ، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو . كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه ، قال تعالى :
(فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) [الروم :

30] وفي الصحيحين عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كل مولود يولد على الفطرة - وفي رواية : على هذه الملة - فأبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء "

وفي صحيح مسلم ، عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "

يقول الله [تعالى] إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم ، عن دينهم

وحرمت عليهم ما أحلت لهم " وقال الإمام أبو جعفر بن جرير ، رحمه الله : حدثنا يونس

بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني السري بن يحيى : أن الحسن بن أبي الحسن

حدثهم ، عن الأسود بن سريع من بني سعد ، قال : غزوت مع رسول الله صلى الله عليه

وسلم أربع غزوات ، قال : فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاشتد عليه ، ثم قال : " ما بال أقوام يتناولون الذرية ؟ " قال رجل : يا رسول الله ، أليسوا أبناء المشركين ؟ فقال : " إن خياركم أبناء المشركين ! ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة ، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها ، فأبواها يهودانها أو ينصرانها " . قال الحسن : والله لقد قال الله في كتابه : (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم) الآية وقد رواه الإمام أحمد ، عن إسماعيل ابن علية ، عن يونس بن عبيد ، عن الحسن البصري به . وأخرجه النسائي في سننه من حديث هشيم ، عن يونس بن عبيد ، عن الحسن قال : حدثنا الأسود بن سريع ، فذكره ، ولم يذكر قول الحسن البصري واستحضاره الآية عند ذلك وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم ، عليه السلام ، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين و [إلى] أصحاب الشمال ، وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم . قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا شعبة ، عن أبي عمران الجوني ، عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان

لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به ؟ " قال : " فيقول : نعم . فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر آدم ألا تشرك بي شيئا ، فأيتت إلا أن تشرك بي " . أخرجاه في الصحيحين ، من حديث شعبة ، بهديث آخر : وقال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا جرير - يعني ابن حازم - عن كلثوم بن جابر عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس [رضي الله عنهما] عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم ، عليه السلام ، بنعمان . يعني عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه ، ثم كلمهم قبلا قال : (ألت بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) إلى قوله : (المبطلون) وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب التفسير من سننه ، عن محمد بن عبد الرحيم - صاعقة - عن حسين بن محمد المروزي ، به . ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث حسين بن محمد به . إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفا . وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث حسين بن محمد وغيره ، عن جرير بن حازم ، عن كلثوم بن جبر ، به . وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبير هكذا قال ، وقد رواه عبد الوارث ، عن

كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، فوقفه وكذا رواه إسماعيل ابن علية
ووكيع ، عن ربيعة بن كلثوم ، عن جبير ، عن أبيه ، به . وكذا رواه عطاء بن السائب ،
وحبيب بن أبي ثابت ، وعلي بن بذيمة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قوله ، وكذا
رواه العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس فهذا أكثر وأثبت ، والله أعلم . وقال ابن
جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبي ، عن أبي هلال ، عن أبي جمرة الضبعي ، عن ابن
عباس [رضي الله عنهما] قال : أخرج الله ذرية آدم [عليه السلام] من ظهره كهيئة
الذر ، وهو في آذي من الماء . وقال أيضا : حدثنا علي بن سهل ، حدثنا ضمرة بن ربيعة ،
حدثنا أبو مسعود عن جوير قال : مات ابن للضحاك بن مزاحم ، [وهو] ابن ستة أيام .
قال : فقال : يا جابر ، إذا أنت وضعت ابني في لحدّه ، فأبرز وجهه ، وحل عنه عقده ،
فإن ابني مجلس ، ومسئول . ففعلت به الذي أمر ، فلما فرغت قلت : يرحمك الله ، عم
يسأل ابنك ؟ من يسأله إياه ؟ قال : يسأل عن الميثاق الذي أقرب به في صلب آدم . قلت :
يا أبا القاسم ، وما هذا الميثاق الذي أقرب به في صلب آدم ؟ قال : حدثني ابن عباس [
رضي الله عنه] : أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خلقها إلى يوم

القيامة ، فأخذ منهم الميثاق : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وتكفل لهم بالأرزاق ، ثم أعادهم في صلبه . فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به ، نفعه الميثاق الأول . ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يف به ، لم ينفعه الميثاق الأول . ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر ، مات على الميثاق الأول على الفطرة فهذه الطرق كلها مما تقوي وقف هذا على ابن عباس ، والله أعلم .

حديث آخر : وقال ابن جرير : حدثنا عبد الرحمن بن الوليد ، حدثنا أحمد بن أبي طيبة ، عن سفيان بن سعيد ، عن الأجلح ، عن الضحاك وعن - منصور ، عن مجاهد - عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم) قال : " أخذ من ظهره ، كما يؤخذ بالمشط من الرأس ، فقال لهم : (ألت بربكم قالوا بلى) قالت الملائكة (شهدنا أن يقولوا) يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أحمد بن أبي طيبة هذا هو : أبو محمد الجرجاني قاضي قومس ، كان أحد الزهاد ، أخرج له النسائي في سننه ، وقال أبو حاتم الرازي : يكتب حديثه . وقال ابن عدي : حدث بأحاديث أكثرها غرائب . وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن مهدي ، عن سفيان

الثوري ، عن منصور ، عن مجاهد ، عن عبد الله بن عمرو ، قوله ، وكذا رواه جرير ،
عن منصور ، به . وهذا أصح والله أعلم . حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا روح - هو
ابن عباد - حدثنا مالك ، وحدثنا إسحاق ، أخبرنا مالك ، عن زيد بن أبي أنيسة : أن
عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، أخبره ، عن مسلم بن يسار الجهني : أن
عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية : (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم
وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) الآية ، فقال عمر بن الخطاب : سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سئل عنها ، فقال : " إن الله خلق آدم ، عليه السلام ،
ثم مسح ظهره يمينه ، فاستخرج منه ذرية ، قال : خلقت هؤلاء للجنة ، ويعمل أهل
الجنة يعملون . ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية ، قال : خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل
النار يعملون " . فقال رجل : يا رسول الله ، فقيم العمل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : " إذا خلق الله العبد للجنة ، استعمله بأعمال أهل الجنة ، حتى يموت على عمل
من أعمال أهل الجنة ، فيدخله به الجنة . وإذا خلق العبد للنار ، استعمله بعمل أهل النار
حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار ، فيدخله به النار " . وهكذا رواه أبو داود عن

القعني - والنسائي عن قتيبة - والترمذي عن إسحاق بن موسى ، عن معن . وابن أبي

حاتم ، عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وهب . وابن جرير من حديث روح بن عبادة

وسعيد بن عبد الحميد بن جعفر . وأخرجه ابن حبان في صحيحه ، من رواية أبي مصعب

الزيري ، كلهم عن الإمام مالك بن أنس ، بهقال الترمذي : وهذا حديث حسن ،

ومسلم بن يسار لم يسمع عمر . وكذا قاله أبو حاتم وأبو زرعة . زاد أبو حاتم : وبينهما نعيم

بن ربيعة . وهذا الذي قاله أبو حاتم ، رواه أبو داود في سننه ، عن محمد بن مصفى ، عن

بقية ، عن عمر بن جعثم القرشي ، عن زيد بن أبي أنيسة ، عن عبد الحميد بن عبد

الرحمن بن زيد بن الخطاب ، عن مسلم بن يسار الجهني ، عن نعيم بن ربيعة قال : كنت

عند عمر بن الخطاب [رضي الله عنه] وقد سئل عن هذه الآية : (وإذ أخذ ربك من

بني آدم من ظهورهم ذريتهم) فذكره وقال الحافظ الدارقطني : وقد تابع عمر بن جعثم

بن زيد بن سنان أبو فروة الرهاوي ، وقولهما أولى بالصواب من قول مالك ، والله أعلم قلت

: الظاهر أن الإمام مالكا إنما أسقط ذكر " نعيم بن ربيعة " عمدا ؛ لما جهل حاله ولم

يعرفه ، فإنه غير معروف إلا في هذا الحديث ، وكذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا

يرتضيهم ؛ ولهذا يرسل كثيرا من المرفوعات ، ويقطع كثيرا من الموصولات ، والله أعلم .

حديث آخر : قال الترمذي عند تفسيره هذه الآية : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة [رضي الله عنه] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما خلق الله [عز وجل] آدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل إنسان منهم ويصا من نور ، ثم عرضهم على آدم ، فقال : أي رب ، من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك . فرأى رجلا منهم فأعجبه ويص ما بين عينيه ، فقال : أي رب ، من هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك ، يقال له : داود . قال : رب ، وكم جعلت عمره ؟ قال : ستين سنة . قال : أي رب ، زده من عمري أربعين سنة . فلما انقضى عمر آدم ، جاءه ملك الموت قال : أو لم يبق من عمري أربعون سنة ؟ قال : أو لم تعطها ابنك داود ؟ قال : فجحد آدم فجحدت ذريته ، ونسي آدم فنسيت ذريته ، وخطئ آدم فخطئت ذريته " . ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم . ورواه الحاكم في مستدركه ، من

حديث أبي نعيم الفضل بن دكين ، به . وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاهورواه
ابن أبي حاتم في تفسيره ، من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، أنه
حدثه عن عطاء بن يسار ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه
وسلم ، فذكر نحو ما تقدم ، إلى أن قال : " ثم عرضهم على آدم فقال : يا آدم ، هؤلاء
ذريتك . وإذا فيهم الأجدم والأبرص والأعمى ، وأنواع الأسقام ، فقال آدم : يا رب ،
لم فعلت هذا بذريتي ؟ قال : كي تشكر نعمتي . وقال آدم : يا رب ، من هؤلاء الذين
أراهم أظهر الناس نورا ؟ قال : هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك " . ثم ذكر قصة داود ،
كنحو ما تقدم حديث آخر : قال عبد الرحمن بن قتادة النصري عن أبيه ، عن هشام بن
حكيم ، رضي الله عنه ، أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ،
أبدأ الأعمال ، أم قد قضي القضاء ؟ قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن
الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم ، ثم أشهدهم على أنفسهم ، ثم أفاض بهم في كفيه "
ثم قال : " هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار ، فأهل الجنة ليسون لعمل أهل الجنة ، وأهل
النار ليسون لعمل أهل النار " . رواه ابن جرير ، وابن مردويه من طرق عنهما حديث آخر :

روى جعفر بن الزبير - وهو ضعيف - عن القاسم ، عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما خلق الله الخلق ، وقضى القضية ، أخذ أهل اليمين يمينه وأهل الشمال بشماله ، فقال : يا أصحاب اليمين . فقالوا : لبيك وسعديك . قال : أأست بربكم ؟ قالوا : بلى . قال : يا أصحاب الشمال . قالوا : لبيك وسعديك . قال : أأست بربكم ؟ قالوا : بلى ثم خلط بينهم ، فقال قائل : يا رب ، لم خلطت بينهم ؟ قال : لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ، أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، ثم ردهم في صلب آدم [عليه السلام] . رواه ابن مردويه أثر آخر : قال أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب [رضي الله عنه] في قول الله تعالى (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم) الآية والتي بعدها ، قال : فجمعهم له يومئذ جميعا ، ما هو كائن منه إلى يوم القيامة ، فجعلهم أرواحا ثم صورهم ثم استنطقهم فتكلموا ، وأخذ عليهم العهد والميثاق ، وأشهدهم على أنفسهم أأست بربكم ؟ قالوا : بلى ، الآية . قال : فإني أشهد عليكم السماوات السبع ، والأرضين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة : لم نعلم بهذا اعلموا أنه لا إله غيري ، ولا رب غيري ، فلا

تشرکوا بی شیئا ، وانی سأرسل إلیکم رسلا یدکرونکم عهدي وميثاقي ، وأنزل علیکم کتبی . قالوا : نشهد أنك ربنا وإلهنا ، لا رب لنا غیرک ، ولا إله لنا غیرک . فأقروا له يومئذ بالطاعة ، ورفع أباهم آدم فنظر إلیهم ، فرأى فیهم الغني والفقير ، وحسن الصورة ودون ذلك . فقال : یا رب ، لو سويت بین عبادک ؟ قال : إني أحببت أن أشکر . ورأى فیهم الأنبياء مثل السرج علیهم النور ، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة ، فهو الذي يقول تعالى (وإذ أخذنا من النبین ميثاقهم [ومنک ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غلیظا]) [الأحزاب : 7] وهو الذي يقول : (فأقم وجهک للدين حنیفا فطرة الله [التي فطر الناس علیها لا تبدیل لخلق الله]) الآية [الروم : 30] ، ومن ذلك قال : (هذا نذیر من النذر الأولى) [النجم : 56] ومن ذلك قال : (وما وجدنا لأکثرهم من عهد [وإن وجدنا أکثرهم لفاسقین]) [الأعراف : 102] . رواه عبد الله بن الإمام أحمد فی مسند أبيه ، ورواه ابن أبي حاتم وابن جریر وابن مردويه فی تفاسیرهم ، من رواية ابن جعفر الرازي ، به . وروي عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبیر ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ، وغير واحد من علماء السلف ، سياقات توافق هذه

الأحاديث ، اكتفينا بإيرادها عن التطويل في تلك الآثار كلها ، وبالله المستعان .فهذه

الأحاديث دالة على أن الله ، عز وجل ، استخرج ذرية آدم من صلبه ، وميز بين أهل الجنة وأهل النار ، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم ، فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس [رضي الله عنهما] وفي حديث عبد الله بن عمرو [رضي الله عنهما] وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان ، كما تقدم . ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد ، كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي ، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع . وقد فسر الحسن البصري الآية بذلك ، قالوا : ولهذا قال : (وإذ أخذ ربك من بني آدم) ولم يقل : " من آدم " ، (من ظهورهم) ولم يقل : " من ظهره " (ذرياتهم) أي : جعل نسلهم جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، كما قال تعالى : (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض) [الأنعام : 165] وقال : (ويجعلكم خلفاء الأرض) [النمل : 62] وقال : (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) [الأنعام : 133] ثم قال : (وأشهدهم على أنفسهم ألاست بربكم قالوا بلى) أي : أوجدتهم شاهدين بذلك ، قائلين له

حالا وقالوا . والشهادة تارة تكون بالقول ، كما قال [تعالى] (قالوا شهدنا على أنفسنا) [الأنعام : 130] الآية ، وتارة تكون حالا كما قال تعالى : (ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر) [التوبة : 17] أي : حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك ، وكذلك قوله تعالى : (وإنه على ذلك لشهيد) [العاديات : 7] كما أن السؤال تارة يكون بالقال ، وتارة يكون بالحال ، كما في قوله : (وآتاكم من كل ما سألتموه) [إبراهيم : 34] قالوا : ومما يدل على أن المراد بهذا هذا ، أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإِشراك ، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره ، ليكون حجة عليه . فإن قيل : إخبار الرسول به كاف في وجوده ، فالجواب : أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره . وهذا جعل حجة مستقلة عليهم ، فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد ؛ ولهذا قال : (أن يقولوا) أي : لئلا يقولوا يوم القيامة : (إنا كنا عن هذا) أي : [عن] التوحيد (غافلين أو تقولوا إنما أشرك آبائنا) الآية .